# السّياق بين التّراث اللغوي العربي والدّرس اللّساني الغربي الحديث:

**أ. بحري قويدر**
**المدرسة العليا للأساتذة ـ بوزريعة ـ الجزائر**

**ملخّص:**
تعتبر النّظرية السياقية ثمرة من الثّمرات التي أنتجتها اللّسانيات، والتي هي أحد أهمّ محاور علم الدّلالة، حيث جُعلت منها نظرية ومنهجا متكاملا، وذلك لدورها الرّئيس في إبراز المعنى، وكشف مغاليق النّص وإزالة الغموض واللّبس الذي يكتنفه، والبحث الآتي يتطرّق إلى السياق وماهيته، وأنواعه، وأهم نقاط التلاقي في الفكر السياقي بين المدرستين العربية والغربية.
الكلمات المفتاحية: السياق، المعنى، الدّلالة، التّراث العربي، الدّرس اللساني الغربي، نظرية النظم.

**تمهيد:**
أعطى الدرس اللساني العربي القديم اهتماما كبيرا للسّيّاق ودوره في بيان الدّلالة، وقديما قيل "لكلّ مقام مقال" لكنه لم يشر لمصطلح السّيّاق كمفهوم، بل كانت هناك ملامح وإشارات تصلح أن تكون مقدّمات للنّظرية السّيّاقية التي ظهرت جليّا وبشكل واضح في المدرسة الغربية البريطانية مع العالم اللغوي فيرث والتي وسّع فيها نظريته اللُّغوية بمعالجة جميع الظروف اللغوية لتحديد المعنى، ومن ثمّ حاول إثبات صدق المقولة القائلة "المعنى وظيفة السياق"

ولقد ارتبطت النّظرية السّياقية في العصر الحديث بالعالم اللّغوي الانجليزي " جون روبرت فيرث"(John Robert Firth)، والذي كان له الفضل في إرساء معالمها، إذ يمكن القول أنّ النّظرية السّياقية بزعامة " فيرث "هي الإسهام الحقيقي للّغويين الإنجليز وخطوة مهمّة ومتقدّمة في الدّرس اللّساني، والذي كان له تأثير واضح على بعض اللّغويين المحدثين العرب مثل: تمام حسان، ومحمود السّعران وكمال بشر وغيرهم.

لكنّ فكرة السيّاق لم تكن وليدة المدارس اللّسانية الغربية الحديثة، بل تمتدّ جذورها في أعماق الدّراسات اللّغوية العربية، حيث أدرك علماء العرب قديما وظيفة السياق ودلالته، وكان لهم فضل السّبق في ذلك، وهذا ما يتجلّى في كتب علماء النّحو واللغة والبلاغة والتّفسير (أمثال الخليل وسيبويه وابن جني والجاحظ والزمخشري...).

من خلال هذا التقديم البسيط عن نظرية السياق نطرح جملة من الأسئلة أهمّها: ما المقصود بالسياق؟ وهل عرفَه قدماء لغوي العرب؟ أم مرتبط بالمدرسة الغربية (المدرسة اللندنية البريطانية) فحسب؟

وهل يلتقي الجانبان العربي والغربي في الفكر السيّاقي؟

مفهوم السّياق: contexte

**1.1 التّعريف اللغوي:**
تعدّدت تعاريف السّيّاق في اللّغة نظرا لتعدّد الآراء وثرائِها في هذا المجال الخصب، لا سِيَّما في المعاجم القديمة، أذكر منها بعض التّعريفات:

جاء في لسان العرب لابن منظور(ت:711ه/1311م)، في مادة سَوَقَ "السُّوقُ معروف وسَاقَ الإبل وغيرها يَسُوقُهَا سَوْقًا وسِيَاقًا وهو سَائِقٌ سَوَاقٌ، وقد اِنْسَاقَتْ وتَسَاوَقَتْ الإبل إذا تتابعت وكذلك تَقَاوَدَتْ فَهِيَ مُتَقَاوِدَةٌ ومُتَسَاوِقَةٌ"[1].

ذهب ابن فارس(ت395ه/1004م) "إلى أن السّين والواو والقاف أصل واحد وهو حَدْوُ الشيء، يقال سَاقَهُ يَسُوقُهُ سَوْقًا، والسِّيقَةُ: ما اسْتِيقَ من الدّواب، ويقال: سُقْتُ إلى امرأتي صداقها وأَسَقْتُهُ، والسُّوقُ مُشتقَّةٌ من هذا لما يُسَاقُ إليها من كل شيء والجمع أسواق، والسَّاقُ للإنسان وغيره، والجمع سُوَّقٌ وإنّما سُمِّيت بذلك لأن الماشي ينساقُ إليها "[2]

قال الزمخشري (ت: 538ه/1143م): "ومن المجاز هو يَسُوقُ الحديث أحسن سِيَاقٍ وإليك سياق الحديث، وهذا الكلام مساقه إلى كذا وجئتك بالحديث على سوقه أي: سرده "[3].

فالزمخشري في هذا التعريف يبيّن كيفية سرد الحديث في أحسن مقام، أي على أكمل وجه، ويقصد بالسرد: التّوالي والتّتابع.

وردت في القرآن الكريم كلمة سياق أو ما يُشْتَقُّ منها كقوله تعالى: " وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ" [4] وفي قوله تعالى:" وَسِيقَ الذِينَ اتَّقُوا رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبوَابُها وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ" [5] وقوله: "إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَسَاقُ "[6]

وقال امرؤ القيس (ت 565م): لَنَا غَنَمٌ نَسوقُهَا غِزَارٌ*** كَأَنَّهَا قُرُونٌ جَلَتْهَا الْعَصَى[7]

يقال أيضا: "ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحدة، أي بعضهم على أثر بعض ليس بينهم أنثى، وولد لفلان ثلاثة أولاد ساقًا على ساقٍ أي: واحدا في أثر واحد، وبَنَى القوم بيوتهم على ساقٍ واحدة أي: أنّهم بنوها على نموذجٍ مُوحَّدٍ متتابعةٍ في رقعةٍ واحدةٍ"[8].

وردت مادة (سَاقَ) في المعجم الوسيط بحيث: "سَاقَ اللهُ إليكَ خيرًا ونحوه بعثه إليه وأرْسَلَهُ، وسَاقَ الحديث سرده وسلسله، وإليك يُسَاقُ الحديث يُوَجَّهُ، سَاقَ المهر إلى المرأة: أرسله وحمله إليها، سَاوَقَهُ: تَابَعه سَايَره وجَارَاه، وانْسَاقَ اتَّبَعَ غيره، تَسَاوَقَتْ الماشية ونحوها تتابعت وتزاحمت في السير"[9]

وقيل: "السُّوَيْقُ طعام يُتَّخَذُ من مدقوق الحنطة والشّعير، وسُمِّي بذلك لانسياقه في الحلق من غير مضغ "[10]، ويقال أيضا: سَاقَ الحصان يَسُوقُه سَوْقًا وسِيَاقَةً حَثُّهُ على السَّير من خلفه، وتَسَوَّقَ القوم: باعوا واشتروا.

أمّا في الكتب الغربية فقاموس «روبير الصغير» « le petit robert » يعرّفه "أنّه مجموع نص يحيط بعنصر لغوي (كلمة، جملة، جزء من ملفوظ ....) ويتعلّق بمعناها وقيمتها كما يعرّف أيضا على أساس أنّه مجموع الظروف التي في إطارها يدرج فعل ما فهناك السياق السيكولوجي للتصرّف والسّياق السّياسي والسّياق العائلي ...

وأشار قاموس «petit la rousse» إلى لفظ contexte أي السياق، وهو اسم لاتيني مذكر ورد contexere ومعناه مجموع النص الذي يسبق أو يلي جملة أو مجموعة من كلمات أو كلمة" [11].

أمّا «ميكرو روبير» « micro robert » فيشرح السّيّاق على أنه مجموع النص الذي يحيط بعنصر لغوي من أجل فهم أفضل " [12].

من خلال التّعاريف السابقة نستنتجُ أنّ السّياق يدلّ على المرض والعلّة وصولا إلى الموت، كما يعني التّسلسل والتّتابع كما الحال في الحديث أو الكلام.

### 1ـ 2ـ التّعريف الاصطلاحي:

"يتكوّن مصطلح السياق من مقطعين text و cont، أي مع النسيج، حيث استعمل المصطلح الأول ليعني الكلمات المصاحبة للمقطوعات الموسيقية، ثمّ بعد ذلك أصبح يستعمل بمعنى النص، أي تلك المجموعات من الكلمات المتراصّة مكتوبة أو مسموعة إضافة إلى معنى جديد متمثل فيما يحيط بالكلمة المستعملة في النص من ملابسات لغوية وغير لغوية "[13]

السياق هو "البيئة التي تحيط بصوت أو مورفيم أو كلمة أو عبارة أو جملة، ويعتمد في دلالته على القرائن اللغوية، وهي القرائن الدّاخلية، كما يعتمد أيضاً على القرائن الخارجية، وقد تكون تلك النّصوص لغوية أو أحوال اجتماعية أو غيرها"[14]

إذاً نفهم من كل ما سبق أن السّياق ينقسم إلى قسمين هما: السياق اللغوي، والسياق غير اللغوي الذي يعنى: كل ما يحيل إلى خارج النص أو ما حوله من مؤثرات بيئية (تاريخية، سياسية، اقتصادية، اجتماعية، نفسية ...) من الممكن أن تنعكس على النص فيصطبغ ببعض ألوانها، لذلك "يسعى النقد التقليدي إلى أن يتخذ من السياق معولا مرجعيا يتّكئ عليه في سبيل الولوج إلى أغوار النص وإضاءة جوانبه الداخلية"[15]

فالنّص تتجاذبه علاقتان: داخلية وخارجية، داخلية كي يتماسك ومن ثمّ فهو واقع كذلك بين التّأثير والتّأثر من قبل البيئة المحيطة، وهذا ما يؤكد لنا العلاقة التّلازمية بين النّص والسّيّاق باعتباره يؤثر فيه، وبفضله يمكن القبض على المعنى النصي.

ولعلَّ هذه الأهمّية للعلاقات بين النص والسياق هي التي دفعت هاليداي ورقية حسن إلى وضع عنوان كتاب لهما (اللغة، السياق والنص) الذي أكّدَا فيه أن الفكرة الأساس تهدف إلى إجلاء العلاقة بين النص والسياق، هذه العلاقة مؤكّدة "فكلّ من النص والسياق يمكن تفسيره بالرجوع إلى الآخر "[16]

أمّا تمّام حسّان فقد تطرّق في كتبه: (مناهج البحث في اللغة) (اللغة العربية معناها ومبناها) إلى تعريف السياق حين قال: "المقصود بالسّياق: التّوالي، ومن ثمّ يُنظرُ إليه من ناحيتين:

**أوّلها**: توالي العناصر التي يتحقّق بها التركيب والسبك، والسياق من هذه الزاوية يسمّى: (سياق النّص).

**ثانيها**: توالي الأحداث التي صاحبت الأداء اللغوي، وكانت ذات علاقة بالاتّصال، ومن هذه الناحية يسمّى السياق: (سياق الموقف)"[17]

ومن هنا يتّضح أن فهم النص وتفسيره لا يتأتّى لنا إلا بالرّجوع إلى السّيّاق باعتباره يؤدّي دورا كبيرا في جلاء معنى النص وإبرازه، بَيْدَ أنه قد يلتبس مصطلح (السياق) بمصطلح (المقام) وهذا الالتباس ممتدٌّ بين زمنين وثقافتين، فقد شاع المقام عند العرب قديما عندما استعملوه في الدراسات البلاغية، في حين استعمل كثير من المحدثين خصوصا الغربيين مصطلح السياق إلّا أنّ هناك فروقا بينهما.

**2ـ أنواع السياق:**

يعرّف (فيرث) المعنى بأنّه" علاقة بين العناصر اللغوية والسياق الاجتماعي، بحيث تتحدد معاني تلك العناصر وفقا لاستعمالها في المواقف الاجتماعية المختلفة. وبناءً على هذا الفهم يقسم السياقيون السياق إلى عدة أنواع"[18] هي:

* السياق اللغوي: وهو " النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم، الذي يشمل الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة للكلمة، والنص الذي ترد فيه، أي موقعها من الجملة والنص وما يُكْسِبها من توجيه دلالي "[19]، أي: أنّ السياق اللغوي يُعنى بالإطار الدّاخلي للغة (بنية النّص) من تسلسل للعناصر وترتيبها وتقارن المفردات وتتالي الوحدات، وكل ما يساعد من قرينة تساعد على كشف المعنى.

* سياق الموقف: ويقصد به " السياق الخارجي للغة، ويشمل كل ما يحيط باللفظ من عناصر غير لغوية تتصل بالمكان والزمان، أو شخصية المتكلم، أو المخاطَب أو الحركات والإشارات التي تسهم في تحديد دلالة الكلمة"[20]، بمعنى: هو تلك الظروف الخارجية التي يتمّ فيها كتابة النص.

* السياق العاطفي: وهو "المعني بتحديد درجة القوة والضعف في الانفعال، فكل كلمة أيا كانت توقظ في الذهن صورة ما بهيجة أو حزينة، أو غير ذلك، فهو يميز بين المعنى الموضوعي والمعنى العاطفي للكلمة"[21]. فالأداء الصوتي وشحن المفردات هو الذي يكسب المعاني الانفعالية للكلام.

* السياق الثّقافي: "ويقتضي تحديد المحيط الثقافي والاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة"[22].

فاللغة ظاهرة اجتماعية، ولا يمكن دراسة أي لغة بمعزل عن محيطها الاجتماعي والثقافي، كما أنّ للغة دور مهم في كسب المجتمع لهويته الثقافية وإبراز خصائصه، ولذلك لا ننكر دور السياق الثقافي في تحديد الدلالة المقصودة من الكلمة أو المفردة.

* السياق السّببي: ويقصد به ما يرد في المعجم من تعليل لاستعمال الصيغة اللغوية على ما هي عليه، وما يرافق الصيغة من تغيير في الاستعمال نتيجة لتغيير المواقف والظروف، والأسباب الداعية لإطلاقها.

ويمكن أن نختصر هذه التقسيمات بسبب تداخل بعضها مع البعض الآخر إلى قسمين هما: السياق اللغوي وسياق الموقف أو الحال (السياق غير اللّغوي).

فالسياق اللغوي " فيهتمّ بدراسة مستويات الكلام اللغوية الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، ويشرح مفردات الكلام ومدلولاتها إذ ترتبط أجزاء الجملة بعضها ببعض، وتدلّ على مختلف العلاقات اللغوية بينها"[23].

أما القسم الثاني وهو سياق الحال (السياق غير اللغوي) "فإن مقتضى دوره يتأتى من أنّ اللغة ظاهرة اجتماعية يعبر بها الناس عن أفكارهم وحاجاتهم، ولذلك فهي متأثرة بالمحيط الخارجي لها، وبالتالي فاللغة تستخدم وسيلة تعبيرية تأثيرية وهي ليست شيئا مجردا عن الواقع الذي توجد فيه بل إن وظيفتها هي التفاعل مع هذا الواقع" [24].

يشير "فيرث "إلى هذا التظافر فيما يراه من أن المعنى هو المحصلة النهائية لتحليل الحدث اللغوي تدريجيا على مستويات اللغة كافة؛ الاجتماعية والصوتية والصرفية والنحوية والدلالية فيقول: " ولمعرفة المعنى يمكن أن نتقبل الحدث اللغوي بشكل كامل، وبعد ذلك نختبره على مستويات مختلفة بالترتيب التنازلي مبتدئين بالسياق الاجتماعي" [25].

وكذلك فإن مفهوم السياق عند أولمان لا يقتصر على الكلمات والجمل الحقيقية فحسب بل يشمل أيضا القطعة كلها، والكتاب كله، كما يشمل بوجه من الوجوه كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات، والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه، و"يرى أن نظرية السياق قد قادت إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهرة في علم المعنى إذ يؤدي السياق دورا بارزا في جلاء المعنى" [26].

إن تحديد المعنى المركزي أو الثانوي يتوقف على الكلمة نفسها من خلال تساوقها مع الكلمات الأخرى، لأن وضع الكلمات في التركيب يقتضي مناسبة وتوافق في الدلالة. وعليه فالسياق أيضا يحدد العلاقات السياقية التي تربط الكلمات بالتراكيب، لأنّ " الكلمات تكتسب قيمتها من مقابلتها لما يسبقها أو يلحقها من كلمات"[27].

وإذا كان السياق يشترط صحة المستوى الدلالي وسلامته في ترابط الألفاظ لإتمام عملية التساوق، فإنه يشترط أيضا سلامة العلاقات النحوية بينها في أيّ تركيب، ويستطيع السياقان؛ النحوي والدلالي متظافرين إبانة المعنى المراد توضيحه، ولذلك فإن" السياق يحدد لنا مفهوم البنية اللغوية للنص ويوضحه ويجنّبه الغموض"[28].

وإذ تكون الدراسة السياقية للمعنى بهذا الشمول للنص، فإن للسياق دوراً بارزاً في فكّ الغموض الذي قد يعتري بعض جوانبه سواء على مستوى اللفظ أو على مستوى التركيب، بما يساعد عليه في تحديد الجانب الوظيفي للصيغ، فضلاً عن تحديد العلاقة الرابطة للألفاظ، وتحديد دلالة هذه العلاقات وأثرها في حسم المعنى. فإن أسباب الغموض كثيرة ومتنوعة، فمنها ما كان في جانب قصد المتكلم، ومنها ما كان في جانب الكلام نفسه، أو في جانب فهم المتلقي، ولكن تحليل الكلام أو النص صوتياً أو نحوياً ومعجمياً بغية الوصول إلى دواعي الغموض بالاعتماد على بنية الكلام التي يحددها السياق هو السبيل إلى فكّ هذا الغموض وتوضيح الدلالة.

**3ـ مظاهر الالتقاء في الفكر السياقي بين المدرستين العربية والغربية:**

شغل الاهتمام بالمعنى المتخصصين كافةً على اختلاف ميادينهم، وتظهر قضية المعنى عند العرب في اهتمامهم بالتعبير عن المعاني الأولى (المطروحة للجميع)، بغية الوصول إلى المعاني الثانية المتضمَّنة في بنية الخطاب الكلي. وهذا يتفق مع ما عناه بيير جيرو عند إيضاحه لأهمية السياق في الكشف عن المعنى، وإزالة الغامض فيه. يقول: " إنّ الغموض الذي يلف العلامة المتعدّدة الدلالات يزول حين توضع في سياقها"[29]. وقد تناول جانب المعنى المفسرون والبلاغيون والأصوليون والنّحويون، لكن الأصوليين كانوا أكثر وضوحاً في تناوله.

وإذا كانت نظرية السياق قد نشأت في الغرب حديثاً وتطورت في ظل الدراسات اللغوية الحديثة، فإن علماء العربية المسلمين سبقوا ذلك بمئات السنين في بيان أهمية السياق بعناصره المقالية والحالية.

وفيما يأتي نرصد عددا من مظاهر الالتقاء بين المدرستين حول السياق، إذ مثّلت المدرسة العربية بعبد القاهر الجرجاني ونظريته العتيدة (نظرية النظم) التي اهتمّت بالسياق وأصبحت مرجعا لكثير من باحثي العربية ونحوا يقبلون عليها بالدرس وبالبحث وينقِّبون عمّا فيها من بصمات علمية واتجاهات فكرية وملامح تجديدية، وفي الجانب المقابل المدرسة الغربية ممثّلة في المدرسة السياقية البريطانية بزعامة فيرث،كون الرجلين عبد القاهر أو فيرث عَمَلَا في حقل واحد هو الحقل اللغوي وفي مجال واحد هو التحليل اللغوي .

**3ـ 1ـ السّياق اللّغوي:**

**3ـ 1ـ 1ـ النّظم عند القاهر الجرجاني في مقابل القواعد النّظامية عند المدرسة اللّندنية:**

النظم Systems رؤية لغوية عربية إسلامية أظهرها لنا العلّامة عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس هجري، أمّا القواعد النظامية règles réglementaires فرؤية لغوية غربية لندنية برزت إلى الوجود في العقود الأخيرة.

إنّ النّظم عند عبد القاهر هو "تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب بعض، والكلم ثلاث: اسم وفعل وحرف، وللتّعليق فيما بينها طرق معلومة "[30]، ثمّ يفرّق عبد القاهر بين الحروف المنظومة والكلم المنظومة، فيقول: "وأمّا نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنّك تقتضي في نظمها آثار المعاني، وترتّبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذاً نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض وليس هو النظم الذي معناه: ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتّفق"[31].

فالنّظم عند عبد القاهر يعتمد على توالي الألفاظ نطقا على تناسب الدلالات وتلاقي المعاني على الوجه الذي يقتضيه العقل، أي أنّ النظم وحدات كلامية منتظمة بطرق معلومة يحكمها النظام النحوي في سياق لغوي (تركيبي) واحد.

أمّا المدرسة اللندنية فاستعملت مفهوما لغويا آخر يتقارب مع مفهوم النظم عند عبد القاهر هو (القواعد النظامية)، وهي رؤية تشكّلت عند رائد المدرسة (فيرث)، ثمّ قام بتطورها تلميذه هاليداي، حيث "تتكون القواعد النظامية من عناصر لغوية مثل الصيغة النحوية، والاعتماد على المعنى والرتبة، وللقواعد النظامية وظائف ثلاث للغة ترتبط بالنشاط الاجتماعي والبنية الاجتماعية وهذه الوظائف تؤدّيها وسائل ثلاث أيضا تسمّى أنساقا وهي: الوظيفة التّمثيلية، والوظيفة التّعالقية، والوظيفة النّصية"[32]، كما يرى فيرث "أنّ النظام مجموعة من الخيارات الكلّية المتبادلة التي تدخل في العمل عند نقطة معيّنة في البناء اللغوي "[33].

وترى مارجريت بري: Margaret Berry (وهي علم من أعلام المدرسة اللندنية) " أنّ الكلام يتكوّن من مجموعة من الوحدات اللّغوية المنتظم بعضها إثر بعض في اتّجاه سياقي واحد يظهر في خط واحد منظّم "[34].

فالقواعد النظامية أسلوب للتحليل التركيبي في مدرسة لندن، وهذه القواعد تتكون من مستويات ثلاث

الشكل: ويقصد به تنظيم أجزاء اللغة تنظيما له معنى (القواعد والمفردات).

المادّة: ويقصد بها الجانب الصوتي أو الكتابي.

السّياق: ويقصد به العلاقات بين الشكل والمواقف.

إنّ مقاربة يسيرة بين رؤيتي عبد القاهر واللغويين اللندنيين تظهر لنا اهتمام الجانبين بالمستوى النّحوي أو السّياق النّحوي التركيبي.

يرى عبد القاهر أنّ النّظم إنّما يكون بالمعنى لا باللّفظ، وهو يصرّح بهذا في أكثر من موضع "إنّ اللفظ تبع للمعنى في النّظم وإنّ الكلم يترتّب في النّطق بسبب ترتّب معانيها في النفس "[35].

من خلال هذا القول نفهم بأنّ عبد القاهر يقتضي مراعاة المعنى في السياق النحوي، وهذا لا يعني استبعاده للّفظ، فالنّظم عنده يتحقق بالمعنى من خلال المواءمة بينه وبين اللفظ.

كما انصبّ اهتمام اللّغويين اللّندنيين على المعنى أيضا فما لا يصحّ عنهم صياغةً ولا نحوًا لا يصحُّ عنهم صياغةً ولا نحوًا، ومن الأمثلة التي ضربوها في ذلك قولهم: (الوَلَدُ حَامِلٌ)، فإذا كانت الجملة غير صحيحة في الانجليزية، فإنّ سبب عدم صحّتها عائد إلى المعنى، فكلّ ما لا يصحّ صياغةً لا يصحُّ نحويا "[36].

تجدر الإشارة إلى أن النّحاة العرب المتقدّمين كانوا قد حكموا قديما على جملة (الوَلَدُ حامِلٌ) وأمثالها بالخطأ عندما قالوا قولتهم الشهيرة: "الإعراب فرع المعنى"[37].

إذاً فعبد القاهر والمدرسة اللندنية يشترطان المعنى كعنصر مهم في السياق النحوي، ومنه فالمعنى مكمِّلٌ للنّحو ولا يستقيم إلّا بوجوده.

**3ـ 1ـ 2ـ التّرتيب عند عبد القاهر في مقابل الرّتبة عند المدرسة اللّندنية:**

"لم يذكر عبد القاهر في كتابه دلائل الإعجاز مصطلح الرّتبة rang بل تحدّث عن التّرتيب classement بنوعيه: اللّفظي الذي تعلّق فيه الكلم بعضها ببعض، والمعنوي حين تترتّب المعاني في النفس"[38]

أمّا في النّحو العربي فيشيع مصطلح الرّتبة في أكثر من باب وموضوع، "فرتبة المبتدأ أن يتقدَّم، ورتبة الخبر أن يتأخَّر، ورتبة الصّلة أن تتأخَّر عن الموصول، وقد أفاض تمّام حسان في هذا الحديث عن الرّتبة وعدّها قرينة لفظية من قرائن التعليق"[39].

أمّا المدرسة اللندنية فتحدّث هاليداي عن الرّتبة وقصد بها: "مقياس أحجام الوحدة النّحوية وقسّمها إلى وحدة الرّتبة الأدنى: وهي الوحدة الصرفية (المورفيم Morvim)، ووحدة الرتبة الأعلى وهي (الجملة Sentence)"[40].

إذاً: فمفهوم الرّتبة عند اللّغويين البريطانيين مختلف عن مفهوم الرّتبة عند عبد القاهر، بَيْدَ أنّه متوافق مع التّراث النّحوي العربي، ففي التّراث النّحوي هناك وحدات نحوية مختلفة في مقاييس أحجامها، فهناك (تاء) الفاعل، و(نا) الفاعلين والمفعولين، فهذه رتب صغرى تجتمع مع الفعل لتؤلّف وحدة أكبر أو رتبة كبرى هي الجملة.

وعموما فمفهوم الرتبة عند اللغويين اللندنيين متوافق مع التراث النحوي العربي، ولا خلاف أنّ عبد القاهر وتراثه في النّظم جزء من التراث العربي الإسلامي في اللغة والنحو.


تاريخ التحكيم 15 ماي 2017

**3ـ 1ـ 3ـ التّعليق والتأليف عند عبد القاهر في مقابل الرّصف عند المدرسة اللندنية:**

بَنَى عبد القاهر فكرة النظم على تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض وهو تعليق مشروط بالانسجام مع أحكام النّحو ومناهج النحاة، كما أنّ النظم عنده يعتمد على توالي الألفاظ وتناسب الدّلالات وتلاقي المعاني على الوجه الذي يقتضيه العقل.

فالتّعليق commentaire عند عبد القاهر مشروط بسبب ما، إذ لا تعليق بين الكلم دون وجود سبب يجعل هذه اللّفظة بسبب من تلك، ولهذا التعلّق طرق ثلاث هي:

"تعلق الاسم بالاسم: كأن يكون خبرا عنه أوحالا منه أو تابعا له ...

تعلّق الاسم بالفعل: كأن يكون فاعلا له أو مفعولا ...

تعلّق الحرف بها "[41].

أمّا مصطلح الرّصف pavage فمفهوم لغوي لدى بعض روّاد المدرسة اللّندنية، وهو في الأصل جزء من السّيّاق، وقد عرّف ستيفن أولمان مصطلح (الرّصف) بقوله: "هو الارتباط الاعتيادي لكلمة ما في لغة ما بكلمات أخرى معيّنة"[42]، أو هو "استعمال وحدتين معجميتين منفصلتين حيث تَتَواشَجُ عادة الواحدة بالأخرى"[43].

فإذا ما تفحّصنا تعريف أولمان الأوّل: (الارتباط الاعتيادي لكلمة ما في لغة ما بكلمات أخرى معينة)، نجده يتوافق مع قول عبد القاهر في (تأليف الكلمات والجمل متوالية الألفاظ، متناسبة الدلالات، مرتّبة المعاني على حسب ما يقتضيه العقل).

"ويقوم الرّصف عند اللّسانيين اللّندنيين على قواعد منها:

أنّه لا يُعنى إلّا بالسّيّاق اللّغوي فقط، أو السّيّاق اللّفظي، أي أنّه يهتمّ ببيان مجموع الكلمات التي تنتظم معها الكلمة.

أنّه يُعنى ببيان الخصائص النّحوية والصّرفية، ويستخدمها في تحديد السّيّاقات التي تقع فيها الكلمة.

أنّه لا يَعُدُّ الجملة كاملة المعنى إلا إذا صيغت على وفق قواعد النحو، وتقبّل أبناء اللغة لها "[44].

إذاً فاللّغويون اللّندنيون استعملوا مصطلح (الرّصف) في السّيّاق اللّغوي وعَنُوا به مراعاة القواعد النّحوية والصّرفية وضرورة الحفاظ على ترتيبها ورسومها وارتباط بعضها ببعض، وهذه العناية بالقواعد النّحوية وضرورة الحفاظ على ارتباطها ورسومها عناية سبقهُم إليها عبد القاهر من خلال مصطلح (التّعليق).

**3ـ 2 ـ السّيّاق غير اللّغوي:**

**3ـ 2ـ 1ـ: المقام عند القاهر في مقابل سياق الموقف عند المدرسة اللّندنية:**

"استطاع عبد القاهر الجرجاني بحسّه البلاغيّ المرهف أنْ يتوخّى الوَحْدَةَ التركيبيّةَ الواحدةَ في النّصّ الواحد، وأنّ الكلمةَ وحْدها أو الجملةَ وحدَها لا تسهمُ في بناء كلّها إلا من خلال نصٍّ كاملٍ مُتكامل، ويُنظر إلى ما فيه من معانٍ كبناءٍ واحدٍ مرصوص، لا خيارَ فيه للكلمة أو الجملة إلا أنْ تتّسقَ في سياقٍ كليٍّ مُحكم، في القصيدة الشعريّة أو الخطبة النثريّة وغيرها من النّصوص الأدبية"[45]..

وقد استلهم عبد القاهر هذا الإحساسَ منْ واضع لبنات السّياق ألا وهو الجاحظ، فيكون عبد القاهر بذلك قد بَنَى صَرْحَ السّياق كما تجلّى له ذلك في نظريّة النّظم، فكما اهتمّ عبد القاهر بالسّياق اللّغوي وخصّه بكثير من العناية والاهتمام من خلال نظرية النظم، "فقد أشار باهتمام إلى السّياق غير اللغوي (سياق المقام) في أكثر من موضع أيضا ولا سِيَّمَا عند تفسيره لأبيات شعرية أو إيراده لخبر أو قصّة ما على نحو ما نجده في قصّة الخارجي، وكيف أنّ عبارة مثل (سُبْحَانَ اللهِ) تحوّلت إلى معصية لأنّها قيلت في مقام معصية "[46].

فالمقام هو الضّلع الثّالث أو الرّكن الثّالث من أركان اللّغة عند عبد القاهر، "إذ أنّ اللّغة في نظره منظومة ثلاثية مكوّنة من: مقتضيات عقلية وسياق ومقام"[47]، فَكَوْنُ المقام هو الرّكن الثّالث من أركان اللّغة عند عبد القاهر لَردٌّ صريح على أولئك الذين اعتبروا أنّ النّظم عند عبد القاهر سياق مقالي فقط.

نَعَمْ قد لا يختلف اثنان في أنّ عبد القاهر قصد السّياق المقالي، فالكلمات والجمل وما يترتّب عنها من تناسق وتعلّق تدخل في باب المقال، لكن هذا لا يعْني استبعاده للمقام، إذ لا يمكن أن نتصوّر مقالًا من دون مقام، ولا بدّ من وجود مواءمة بينهما، وقديما قالوا (لكلّ مقامٍ مقالٌ)، فقدّموا المقام على المقال بيانًا لأهمّيته، والمعنى الدّلالي إنّما يتحقق عن طريق تَزاوُجِهما، أي ارتباطها ببعض.

أمّا سيّاق الموقف فقد عَنِيَ به فيرث وتلامذته، واتّفقوا جميعا على دوره في تحديد المعنى المراد، حيث يرى أولمان " أنّ سياق الموقف هو الذي يُعيِّن حدود الكلمة في أيّ موقف معيّن، وهو الذي يفصل في تناوب المعنى كأن يبيّن لنا ما إذا كانت الكلمة (قَرِيبْ) مثلاً تعني قرابة الرحم، أو القرب في المسافة"[48].

ثمّ يوضّح قائلا: "قد تقوم الكلمة الواحدة في الحالات القصوى مقام النطق الكامل كما في الصّيحة، كقولنا مثلاً: (الحَرِيقْ)، ففي هذه الحالة تقوم الحركات الجسمية، والتّنغيم والموقف اللغوي جميعا بإمدادنا بالأدلّة اللازمة للفهم "[49].

ويُعتبر سياق الموقف عند هارتمان hartman " تلك السمات التي يمثلها العالم الخارجي بالنّسبة للكلمة المنطوقة أو النص الذي يحمل معنى "[50].

إذاً فسياق الموقف هو السّياق الذي جرى في إطاره التفاهم بين شخصين، ويشمل ذلك: زمن المحادثة ومكانها، والعلاقة بين المتحادثين، والقيّم المشتركة بينهما والكلام السّابق للمحادثة.

أمّا زعيم المدرسة اللندنية فيرث فتحدّث عن سياق الموقف، قائلا: "إنّه جملة العناصر المكوّنة للموقف الكلامي، ومن هذه العناصر: شخصية المتكلّم والسّامع وتكوينها الثقافي، وشخصيات من يشهد الكلام غير المتكلّم والسّامع - إن وُجِدُوا، وبيان ما لذلك من علاقة بالسّلوك اللّغوي، والعوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللّغة والسّلوك اللّغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي كحالة الجوّ إن كان لها دخل والوضع السياسي ومكان الكلام ..."[51].

كما عني فيرث أيضا بالسّياق الاجتماعي) إذ أدرك أنّ أهمّية السياق في نقل المعنى وتحقيق الإفهام، وأنّ الإفادة قد تساعد في إيصال المراد، إلّا أنّ السّياق الاجتماعي يدخل في النوع الثاني عند فيرث وهو سياق الموقف.

ومنه يمكن أن نجمل سياق الموقف عند (فيرث) في عناصر ثلاثة:

شخصية المتكلّم أو السامع، ودور المشاهد في المراقبة أو المشاركة.

العوامل المتّصلة بالحدث اللغوي، وتشمل الزمان والمكان والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.

ما يتركه الحدث اللغوي من أثر كالسعادة أو الحزن أو الفرح أو الألم.

إذاً فهذه العناصر الثلاثة لسياق الموقف أقرب ما تكون للمقام الذي عند عبد القاهر، فالمقام عنده وعند غيره من البلاغيين العرب شامل لظروف أداء المقال وقرائنه الحالية، وما من شكّ في أنّ تلك الظروف تشمل مرسل الكلام ومستقبله والأوضاع المتّصلة بالحدث الكلامي، والأثر الذي يتركه ذلك الحدث.

**خاتمة:**

من خلال هذه المقارنة البسيطة بين المدرستين العربية ممثلة في عبد القاهر والمدرسة اللندنية يمكن أن نصل إلى نتائج مَفَادُهَا:

أنّ البلاغيين العرب كانوا أسبق من غيرهم كشفًا لفكرة المقام وبياناً لأثره في الكلام.

يمكن تقسيم السّيّاق عند عبد القاهر إلى نوعين: مقالي ومقامي، وعند اللندنيين كذلك إلى نوعين: سياق لغوي وسياق الموقف.

النّظم عند عبد القاهر يقتضي المعنى، كما يظهر المعنى أيضا متقدّما عند اللّغويين اللّندنيين، فما لا يصحّ عندهم معنى لا يصحّ عنهم صياغةً ولا نحوًا.

هناك تقارب بين الجانبين حول النّظر إلى مفهوم السّياق اللّغوي، ويظهر هذا التّقارب في النّظر المشترك إليه على أنّه حدث كلامي مسبوق بتصوّر ذهني، وعلى وجود علاقات تحكم بناء الكلمات والجمل، وأن يكون لكل كلمة موقع، ثمّ في هذه الكلمات المحكومة ضوابط نحوية ودلالية.

سياق الموقف عند لغوي لندن يشمل شخصية مُرسِل الكلام ومستقبِلَه، والأوضاع المتّصلة بالحدث الكلامي، والأثر الذي يتركه ذلك الحدث، وهذه العناصر أقرب ما تكون للمقام عند عبد القاهر.

كِلَا الرُّؤيتين تشتركان في تقدير قيمة السّيّاق، وتدركان دوره في تِبيانِ معاني الكلمات والجمل عبر مواقعها، كما تتّفقان في تقسيم السّياق إلى قسمين: لغوي يُعنى بالألفاظ (الشّكل عند لغوي لندن والنّظم عند عبد القاهر)، وغير لغوي يُعنى بالعناصر غير اللغوية (الموقف عند لغوي لندن والمقام عند عبد القاهر).

يلتقي الجانبان في التّركيز على العلاقات النّحوية والقواعد التّركيبية، ويختلفان في نزوع فيرث وتلامذته منزعًا اجتماعيا، واعتباره السّياق الاجتماعي مرجعا لفهم الكلام.

تُعَدُّ نظرية السّياق (context theory) في الدّراسات اللغوية الحديثة من أكثر النظريات اللغوية التصاقا بعلم الدّلالة (semantics)، وذلك لدورها الرئيس في تحديد معنى النّص وكشف مَغَاليقِهِ، فالدّلالة أو المعنى هو النّتيجة المرجوّة من كلّ نص أو رسالة، وهو خلاصة ما يودّ المرسل أن ينقله إلى المتلقّي، ولكن هذا المعنى قد لا يتحقق من اللفظ فقط، وإنّما من خلال الظروف المحيطة بالحدث الكلامي وموجهات المعنى الدّاخلية والخارجية للمرسل والجماعة التي ينتمي إليها.

**الهوامش:**

1- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، م10، دار صادر، بيروت، ط1، 1990م، ص166.

2- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تح :عبد السلام محمد هارون، م4، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991م، ص117.

3- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، أساس البلاغة، دار صادر، بيروت، ط1، 1992م، ص 314.

4 ـ سورة ق، الآية 21.

5- سورة الزمر، الآية 73.

6- سورة القيامة، الآية 30.

7- امرؤ القيس، الدّيوان، ضبطه وصحّحه: مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط5، 2004م، 1425هـ، ص91.

8- ابن منظور، لسان العرب، مادة (سوق)، ص167.

9- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط،ج1، شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة، ط3، 1985م، ص482.

10- فهد بن شتوي بن عبد المعين شتوي، دلالة السياق وآثارها في توجيه المتشابه اللّفظي في قصّة موسى عليه السلام (رسالة ماجيستير )، جامعة أم القرى، مكّة المكرّمة، 2005م، ص 12.

11- petit la rousse en conlreues, édition paris, 1984, p 225.

12- Micro robert, imprimé en France par brobard graphique, paris, 1982 p220.

13- كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في اللسانيات الحديثة، القاهرة، ط 3، 1421هـ، 2001م، ص251 .

14- فريد عوض حيدر، فصول في علم الدّلالة، دراسة نظرية وتطبيقية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ب ط، 1419هـ، 1999م، ص 177.

15 يوسف أوغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، إصدارات رابطة الإبداع الثقافية، الجزائر، ب ط، 2000م، ص117 – 118.

16- جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، تر: د عباس صادة عبد الوهاب، دار الشّؤون الثّقافية العامة، آفاق عربية، العراق، ط1، 1987م، ص215.

17- تمّام حسّان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، د ط، 2001م، ص375.

18 - أحمد مختار، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 2004 ، ص69.

19 - ينظر : أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة : د. كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، 1988ص54-55.

20 - ينظر: محمود السعران، علم اللغة ، 310-311.

21- ينظر : د. أحمد مختار، علم الدلالة ص70-71.

22- المرجع نفسه ص71.

23- ينظر : عواطف كنوش ، الدلالة السياقية عند اللغويين،دار السياب للنشر، لندن، 2007، ص48.

24 - ينظر : رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، ص126-127.

25- ينظر : د. عواطف كنوش ، الدلالة السياقية عند اللغويين، 168-169.

26- ينظر : أولمان، دور الكلمة في اللغة، 55.

27- فرانك بالمر، علم الدلالة، تر: صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، دط،1995 م، ص 11.

28- د. محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، الهيئة المصرة العامّة للكتاب، القاهرة، دط، 1984م،ص230.

29- الرماني ( أبو الحسن علي بن عيسى ت 384 هـ )، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق : محمد خلف الله و محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط4، 1991م، ص68.

30- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 52.

31- المرجع نفسه، ص 97.

32- M A K Halliday, An introduction to functiol grammar, 2nd .london, p62.

33- J R .firth, papers in linguistics, london, 1952 ,p 59

34- Margaret Berry, Introduction to systemic, linguistic.2 levels and links london, 1977, p 85.

35- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 122.

36- المرجع نفسه، ص 101.

37- المرجع نفسه، ص 133.

38- ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ص 73.

39- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 207.

40- أحمد نعيم الكراعين، المدارس اللغوية، التطوّر والصراع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ب ط، بيروت، 1993، ص 243.

41- المرجع السابق، ص 53.

42- ستيفان أولمان، دور الكلمة في اللغة، ص 111.

43 - المرجع نفسه، ص111.

44- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص 75.

45- المرجع نفسه، ص 76.

46- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص71.

47- سمير شريف استيتية، منازل الرؤية، دار وائل، عمّان، د ط، 2003م، ص 126.

48- ستيفان أولمان، دور الكلمة في اللغة، ص 38.

49- المرجع نفسه، ص 39.

50- عبد النعيم خليل، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، ص 82.

51- عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د ط، 1999م، ص 167.